الحرام ، بل عن الفلس المحرم ، وعن القطرة من الخمر ، ويتحرز على مثل رأس الابرة من النجاسة ، ولا يبالى بارتكاب الفرج المحرم سواء كان صبيا أو امرأة . كما يحكى : ان رجلا خلا بامرأة أجنبية فلما أراد جماعها قال : ياهذه غطى وجهك فان النظر الى وجه الاجنبية حرام . والمقصود أن الصبر عن الاشياء التى اعتادها الانسان وورد الشرع بذمها من أشق الاشياء على النفوس الا من وفقه الله لذلك *

﴿ فصل ﴾

ومن علامة الصبر وعدم مشقته على النفس عند ورود المصائب ، وكف السكف عن تمزيق الثياب ولطم الخدود ، وحبس اللسان عن الاعتراض على المقادير ، والتسخط والامتناع من كل شئ يوجب اظهاره ، حتى ان السلف كرهوا الانين قالت الحكماء : العاقل يفعل أول يوم مايفعله الجاهل بعد خمسة أيام . وقد قال عليه الصلاة والسلام للاشعث بن قيس : « إنك إن صبرت إيمانا واحتسابا والا سلوت كما تسلوا البهائم »

﴿ الباب العشرون ﴾

(فى الرضاء بالمصيبة)

اعلم رحمك الله أن الرضاء بالمصائب أشق على النفوس من الصبر ، وقد تقدم أن الصبر من أشق الاشياء على النفوس ، وفى جامع الترمذى أن النبى ﷺ . قال : « اذا أحب الله قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضاء ومن سخط فله السخط » وقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الامام أحمد وغيرهم فى الرضاء بالقضاء هل هو واجب أو مستحب على قولين : فعلى الاول يكون من أعمال المقتصدين ، وعلى الثانى يكون من أعمال المقربين ، ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية . فالعبد قد يصبر على المصيبة ولا يرضى بها ، فالرضاء أعلى من مقام الصبر ، لكن الصبر اتفقوا على

وجوبه ، والرضاء اختلفوا فى وجوبه ، والشكر أعلى من مقام الرضاء فانه يشهد المصيبة نعمة فيشكر المبلى عليها . قال عمر بن عبد العزيز : أما الرضاء فمنزلة عزيزة أو منيعة ، ولكن قد جعل الله فى الصبر معولا حسنا . وقال محمد ادريس الشافعى: حدثنا زهير بن عباد عن السرى بن حيان قال : قال عبد الواحد بن زيد : الرضاء باب الله الاعظم وجنة الدنيا وسراج العابدين * وروى ابن أبى الدنيا باسناده عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه . قال : سمعت رسول الله ﷺ . يقول : « الصبر رضاء » فهذا الحديث فيه بشارة عظيمة لأهل المصائب ، اذ سمى الصبر رضاء . وباسناده أيضا الى أبى مسلم . قال أبو مسلم : دخلت على أبى الدرداء فى اليوم الذى قبض فيه وكان عندهم فى العز كأنفسهم ، فجعل أبو مسلم يكبر . فقال أبو الدرداء : أجل فهكذا فقولوا ، فان الله اذا قضا بقضاء أحب أن يرضى به . وذكر ابن أبى الدنيا فى قوله تعالى (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . قال علقمة بن أبى وقاص : هى المصيبة تصيب الرجل فيعلم انها من عند الله فيسلم لها ويرضى . وقال : حدثنا الحسين ثنا عبد الله ثنا على بن الحسن العامرى ثنا أبوه بدر ثنا عمر بن ذر. قال : بلغنا أن أم الدرداء كانت تقول : إن الراضين بقضاء الله الذين ما قضى الله لهم رضوا به لهم فى الجنة منازل يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة * وبهذا الاسناد عن سليمان بن المغيرة . قال : كان فيما أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ، إنك لن تلقانى بعمل هو أرضى لى عنك ولا أحط لوزرك من الرضاء بقضائى ، ولن تلقانى بعمل هو أعظم لوزرك ولا أشد لسخطى عليك من البطر ، فاياك ياداود والبطر * وقال الشافعى : سمعت ابن أبى الحوارى يقول سمعت أبا سليمان الدارانى يقول : أرجوا أن أكون قد رزقت من الرضاء طرفا لو ادخلنى النار لكنت بذلك راضياً * وقال ابن زيد : نظر على بن أبى طالب رضى الله عنه الى عدى ابن حاتم كئيبا . فقال : ياعدى مالى أراك كئيبا حزينا ؟ قال : وما يمنعنى وقد قتل

أبنائى وفقئت عينى . فقال : ياعدى من رضى بقضاء الله كان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله حبط عمله . ذكره ابن أبى الدنيا * وقال أبو عبدالله البراثى : من وهب له الرضاء فقد بلغ أقصى الدرجات * فان قيل : غالب الناس يصبرون ولا يرضون فكيف يتصور الرضى بالمكروه ؟ يقال : إن نفور الطبع عن المصائب لاينافى رضا القلب بالمقدور ، فانارضى القضاء وان كرهنا المقضى ؟ قيل لبعض الصالحين : قتل ولدك فى سبيل الله فبكى . فقيل له : أتبكى وقد استشهد ؟ فقال : إنما أبكى كيف كان رضاه عن الله عز وجل حين أخذته السيوف * وذكر أبو الفرج بن الجوزى بسنده عن عمار بن ياسر رضى الله عنه انه قال : اللهم لو أعلم أنه أرضى لك أن أوقد نارا عظيمة فاقع فيها لفعلت ، ولو أعلم انه أرضى لك عنى أن ألقى نفسى فى الماء فاغرق لفعلت * وعن مصعب بن ماهان عن سفيان الثورى . قال : فى قوله تعالى :(وبشر المخبتين) . قال : المطمئنين الراضين بقضائه المستسلمين له *

﴿ فصل ﴾

وقد أطنب الناس من السلف والخلف فى الرضاء وبسطوا القول فيه واعتنوا به وهذا يدل على علو منزلته . قال عمرو بن أسلم العابد : سمعت أبا معاوية الاسود . يقول : فى قوله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) قال : الرضاء والقناعة . وذكر بن أبى الدنيا باسناده رفعه الى النبى ﷺ .قال : « جلساء الرحمن تبارك وتعالى يوم القيامة الخائفون الراضون المتواضعون الشاكرون الذاكرون » وباسناده الى محمد بن كعب رفعه انه قال : أى رب أى خلقك أعظم ذنباً ؟ قال : الذى يتهمنى . قال : رب وهل يتهمك أحد ؟ قال : نعم الذى يستجيرنى ولا يرضى بقضائى * قال مالك بن أنس : بلغنى أن أبا الدرداء دخل على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى . فقال أبو الدرداء : أصبت ، الله تعالى اذا قضا قضاء أحب أن يرضى به * وروى ابن أبى الدنيا باسناده عن ابن عون انه . قال : أرض بقضاء الله على ما كان عسر ويسر ،

فان ذلك أقل لغمك ، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك ، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا حتى يكون رضاءه عند الفقر والبلاء ؟ كرضائه عند الغناء والرخاء ، كيف تستقض الله فى أمرك ثم تتسخط إن رأيت قضاءه مخالفاً لهواك ؟ ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك لكان فيه هلكك ، وترضى قضاءه اذا وافق هواك وذلك لقلة علمك بالغيب ، وكيف تستقضيه إن كنت كذلك ما أنصفت من نفسك ، ولا أصبت باب الرضا * وروى أبو بكر بن أبى الدنيا أيضاً . قال : حدثنا الحسين ثنا عبد الله حدثنى المروزى . قال : قال حفص بن حميد : كنت عند عبد الله بن المبارك بالكوفة حين ماتت امرأته ، فسألته ما الرضاء ؟ قال : الرضاء أن لا يتمنى خلاف حاله . فجاء أبو بكر بن عياش فعزى ابن المبارك . قال حفص : ولم أعرفه . فقال عبد الله : سله عما كنا فيه فسألته . فقال : من لم يتكلم بغير الرضاء فهو راض . قال حفص : وسألت الفضيل بن عياض . فقال : ذاك للخواص . ثم قال قادم الديلمى العابد : قال قلت للفضيل بن عياض : من الراضى عن الله ؟ قال : الذى لا يحب أن يكون على غير منزلته التى جعل فيها . وقال أبو عبد الله البرانى : لم يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله عز وجل على كل حال * وقال سيار : دخلت على أبى العالية فى مرضه الذى مات فيه . فقال : إن أحبه الى أحبه الى الله عز وجل . وقال عمرو بن أسلم العابد : سمعت أبا معاوية الاسود يقول : فى قوله تعالى : (فلنحيينه حياة طيبة) . قال : الرضا والقناعة . ذكرهن ابن أبى الدنيا فى كتاب الرضا ، ثم ذكر عن مصعب بن ماهان عن سفيان الثورى . قال : فى قوله تعالى (وبشر المخبتين) قال : المطمئنين الراضين بقضائه المستسلمين له * وعن وهب بن منبة . قال : وجدت فى زبور داود عليه السلام يا داود هل تدرى أى الفقراء أفضل ؟ الذين يرضون بحكمى ويقسمى ويحمدونى على ما أنعمت عليهم ، هل تدرى يا داود أى المؤمنين أعظم عندى منزلة ؟ الذى هو بما أعطى أشد فرحاً بما

حبس * وروى الامام أحمد فى كتاب الزهد عن زياد بن أبى حسان انه شهد عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه حين دفن ابنه عبد الملك استوى قائما وأحاط به الناس . فقال : والله يابنى لقد كنت باراً بأبيك ، والله مازلت منذ وهبك الله لى مسروراً بك ولا والله ما كنت قط أشد سروراً ولا أرجى لحظى من الله فيك منذ وضعك الله فى المنزل الذى صيرك اليه ، فرحمك الله وغفر لك ذنبك ، وجزاك باحسن عملك ، ورحم كل شافع يشفع لك بخير شاهد وغائب ، رضينا بقضاء الله وسلمنا لأمره والحمد لله رب العالمين ثم انصرف . وقال سفيان الثورى : قال عمر بن عبد العزيز لابنه : كيف تجدك ؟ قال : فى الموت قال : لأن تكون فى ميزانى أحب الىّ من أن أكون فى ميزانك . فقال : والله يا أبه لان يكون ما تحب أحب إلى من أن يكون ما أحب * وروى الامام أحمد فى الزهد باسناده عن الحسن . قال : حدثنى الأحوص قال : دخلنا على ابن مسعود رضى الله عنه وعنده بنون له ثلاثة كأنهم الدنانير حسناً ، فجعلنا نتعجب من حسنهم . فقال لنا : كأنكم تغبطوننى بهم ، قلنا : أى والله لمثل هؤلاء يغبط المسلم ، فرفع رأسه الى سقف بيت له صغير قد عشش فيه خطاف وباض . فقال : والذى نفسى بيده لأن أكون نفضت يدى عن تراب قبورهم أحب الى من أن يسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه * وباسناده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه . انه قال يوم مات أبو بكر الصديق رضى الله عنه : رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمره انا لله و إنا اليه راجعون

﴿ فصل ﴾

قد تقدم ما سنه رسول الله ﷺ لأهل المصيبة وما نهى عنه ، ومما سنه الخشوع والبكاء الذى لاصوت معه ، وحزن القلب وكان يفعل ذلك . ويقول : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا مايرضى الرب » وكذلك الحمد والاسترجاع * وقد تقدم . ومن سنته الرضاء عن الله فى المصيبة وغيرها ، ولم يكن ذلك منافيا لدمع

العين وحزن القلب ، وأشد الناس حرصاً على رضى مولاهم الانبياء . فقد روى ابن أبي الدنيا باسناده عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ . قال : « إنامعاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء تضعيفاً » قال : فقلنا : سبحان الله . قال: « أفعجبتم إن أشد الناس بلاء الأنبياء والصالحون الامثل فالامثل » . قلنا : سبحان الله . قال : « أفعجبتم ان كان النبي من الأنبياء ليتدرع العباءة من الحاجة لايجد غيرها » قلنا : سبحان الله . قال : « أفعجبتم ان كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء » ولهذا كان أرضاهم وأرضى الخلق عن الله نبينا محمد ﷺ فى قضائه وقدره . وأعظمهم له حمداً ، ولم يمكنى أحصر ماوقع له فى ذلك لكثرته وشهرته ، ومع ذلك بكى يوم مات ابنه ابراهيم عليه السلام رأفة ورحمة منه للولد ورقة عليه وقلبه ﷺ ممتلئ بالرضا عن الله تعالى وشكره له واللسان مشتغل بحمده وذكره * ولما ضاق هذا المشهد والجمع بين الامرين ـ يعنى رحمة الولد والرقة عليه والرضاء عن الله تعالى ـ على أن بعض العارفين من السلف يوم مات ولده جعل يضحك . فقيل له : تضحك فى مثل هذه الحال ؟ فقال : إن الله تعالى قضا بقضاء فاحببت أن أرضى بقضائه . فاشكل هذا على جماعة من العلماء وأرباب الاحوال والتصوف وقالوا : كيف يبكى رسول رب العالمين ﷺ يوم مات ولده وهو أرضى الخلق عن الله ، ويبلغ الرضا بهذا العارف الى أن ضحك يوم مات ولده ؟ قال شيخ الاسلام ابن تيمية : هدى نبينا ﷺ أكمل من هدى هذا العارف ، فانه ﷺ أعطى العبودية حقها ، فاتسع قلبه للرضا عن الله ورحمة للولد والرقة عليه ، فحمد الله ورضى عنه فى قضائه وبكى رحمة ورقة فحملته الرحمة على البكاء ، وعبوديته لله ومحبته له على الرضا والحمد ، وهذا العارف ضاق قلبه عن اجتماع الأمرين ، ولم يتسع بطانه لشهودهما والقيام بهما فشغلته ، عبودية الرضاء عن عبودية الرحمة والرقة ، والله تعالى أعلم انتهى *

(قلت) ومما يؤيد ما ذكره الشيخ رحمه الله قصة نبي الله يعقوب اسرائيل الله عليه السلام ، إذ حكى الله تعالى عنه انه ابيضت عيناه من الحزن . وقال : (فصبر جميل ، وإنما أشكوا بثي وحزني الى الله) فمشهده أوسع من مشهد هذا العارف ، بل نبي الله يعقوب أبلغ من هذا العارف ، فان يعقوب كان له عدة من الولد ومع هذا فهذه الرقة والرحمة التي عنده مع الرضاء الكامل ، فاستعمل الرضاء والتفويض . في قوله : (إنما أشكو بثي وحزني الى الله) واستعمل الرقة والرحمة عند وابيضت عيناه من الحزن ، فطريقة يعقوب عليه السلام أفضل من طريقة هذا العارف ، مع كثرة أولاد يعقوب ، وهذه رحمته ورقته ، وأما هذا العارف على ما قيل لم يكن له ولد سواه * وروى الامام أحمد في كتاب الزهد باسناده عن ثابت البناني : أن صلة بن أشيم كان في مغزى له ومعه ابنه . فقال له : أي بني تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فجاء فقاتل حتى قتل ، ثم تقدم أبوه فقتل ، فاجتمعت النساء عند أمه معاذة العدوية . فقالت : مرحباً إن كنتن جئتن لتهنئنني مرحبا بكن ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن * وذكر أبو الفرج ابن الجوزي ، قال أبو جحيفة : انا لمتوجهون الى همذان ومعنا رجل من الأزد فجعل يبكي . فقلت : أجزع هذا ؟ قال : لا ولكن تركت ابني في الرحل فلوددت انه كان معي فدخلنا الجنة جميعا *

﴿ فصل ﴾

الرضاء من أعمال القلوب ، لكن وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد حتى ان بعضهم فسر الحمد بالرضاء ، ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمد الله على كل حال ، وذلك يتضمن الرضا بقضائه ، وفي الحديث : « أول من يدعى الى الجنة الحامدون الذين يحمدون الله في السراء والضراء » وفي الحديث مرفوعا ، أن النبي ﷺ كان اذا أتاه أمر يسره . قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » وإذا أتاه أمر يسوءه قال : « الحمد لله على كل حال » وقد تقدم في مسند الامام أحمد من

حديث أبي موسى الاشعرى ، أن النبي ﷺ . قال : « اذا قبض الله ولد العبد يقول الله لملائكته أقبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم . فيقول : ماذا قال ؟ فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول الله عز وجل : ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد » ومحمد نبينا ﷺ هو صاحب لواء الحمد ، وأمته هم الحامدون الذين يحمدون الله على السراء والضراء ، والرضاء والحمد على الرضاء له مشهدان (أحدهما) علم العبد بان الله سبحانه مستوجب لذلك مستحق له لنفسه ، أحسن كل شئ خلقه وأتقن كل شئ وهو العليم الحكيم (الثانى) أن يعلم أن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه كما روى مسلم فى صحيحه ، عن النبي ﷺ انه . قال : « والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيراً وليس ذلك الا للمؤمن إن أصابته سراء شكره فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » فاخبر ﷺ ان كل قضاء يقضيه الله المؤمن الذى يصبر على البلاء ويشكر على الرخاء فهو خير له كما قال تعالى : (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) فمن لايصبر على ، البلاء ولا يشكر على الرخاء، فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له ، ولهذا أجيب من أورد على هذا بما يقضى على المؤمن من المعاصى بجوابين (أحدهما) أن هذا انما يتناول ما أصاب العبد لا ما يفعله كما فى قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وكقوله تعالى أيضا (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) أى بالسراء والضراء (الثانى) ان هذا فى حق المؤمن الصابر الشاكر ، والذنوب تنقص الإيمان ، فاذا تاب العبد أحبه الله وقد ترتفع درجته بالتوبة . قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، فمن قضى له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير : أن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وان العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة ، وذلك انه يعمل الحسنة فتكون نصب عينيه ويعجب بها ، ويعمل السيئة فتكون

نصب عينيه فيستغفر الله ويتوب اليه منها . وثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ . قال : « الاعمال بالخواتيم » والمؤمن اذا فعل سيئة فان عقوبتها تندفع بعشرة أسباب (أحدها) أن يتوب توبة نصوحا ليتوب الله عليه ، فان التائب من الذنب كمن لاذنب له (الثانى) أن يستغفر الله فيغفر الله تعالى له (الثالث) أن يعمل حسنات يمحوها لقوله (إن الحسنات يذهبن السيئات) (الرابع) أن يدعوا له اخوانه المؤمنون ويشفعون له حياً وميتاً (الخامس) أن يهدله اخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به (السادس) أن يشفع فيه نبينا محمد ﷺ (السابع) أن يبتليه الله فى الدنيا بمصائب فى نفسه وماله وأولاده وأقاربه ومن يحب ونحو ذلك (الثامن) أن يبتليه فى البرزخ بالفتنة والضغطة وهى عصر القبر فيكفر بها عنه (التاسع) أن يبتليه الله فى عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه (العاشر) أن يرحمه أرحم الراحمين . فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه كما قال تعالى فى الأحاديث الآلهيات (إنما هى أعمالكم ترد عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية . والمقصود أن المؤمن اذا كان يعلم أن القضاء خيراً له فيرضى عن الله بما قسم له ، كان قد رضى بما هو خيراً له ، وفى الحديث ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه . قال : « ان الله يقضى بالقضاء فمن رضى فله الرضاء ومن سخط فله السخط »

﴿ الباب الحادى والعشرون ﴾

(فيما يقدح فى الصبر والرضاء وينافيهما)

قد تقدم ان الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ، وانه حبس النفس عما لا يحسن فعله ولا يجمل ، وحبس اللسان عما لا يحسن قوله ، فاذا كان معنى هذه المقالة ان الصبر حبس اللسان عن الشكوى الى غير الله ، والقلب